الثورة مباشرة، تجربة التحالف مع كمال اتاتورك والأمير فيصل، ولكل من التجربتين دروسها المرّة.

ولا تستقيم قراءة تجربة عزالدين القسام، في اطار ثورات الشمال، عبر اقتباس الجمل، الدالة على دوره المباشر، ومساهماته الميدانية، لأنها تكون كمن يقرأ لوحة «غيرنيكا» الشهيرة للفنان بيكاسو بأنها تساوي: أربع نساء، طفل، تمثال مكسور لمحارب، ثور، حصان وطائر! واذا كان اسوأ ما في اللوحة، هو هذا التلخيص القادم من خارجها، فان أسوأ قراءة لتجربة القسام، هي التي تعزله عن محيطه، وتقدم دروس خبرته بعيداً عن دروس الوضع العام. خاصة وان استخلاصاته هنا، لا تنبع من المناقشة، كما كان الأمر مع نتائج ثورة عرابي في القاهرة، وانما من المعايشة والمساهمة المباشرة. ولذلك فقراءة ثورات الشمال، تبدأ من الثورة العربية، وتتقاطع مع الحكم الفيصلي في دمشق، وصولاً الى خبراتها الخاصة، ومجابهتها المنفردة، قبل التصفية النهائية، لمواقع الثورة الرباعية في جبال العلويين، جبال صهيون، جبل الزاوية والاسكندرون.

الحسين: المقاومة والمساومة

اتصل السوريون بالشريف حسين، لأول مرة، عام ١٩١٥، عندما ذهب الشيخ كامل القصاب الى مكة، متخذاً من موسم الحج ستاراً. ونقل كامل القصاب للشريف حسين، مطالب السوريين وهي «الاستقلال التام» و «انهم لا يحاربون الّا اذا ضمنوه»[٢٣]. ويبدو أن اتفاقاً بهذا المضمون قد عقد بين الرجلين. حيث جاءت زيارة الأمير فيصل لدمشق (٢٦ آذار ــ مارس ١٩١٥) لتتويج هذا الاتفاق بخطوات عملية. وعاد الأمير الى الحجاز «ومعه أختام رجالات سوريا بأجمعهم، وكانت تتجاوز المئتي ختم موضوعة في كيس»[٢٤].

الخيط الثاني عقده الشريف حسين مع الأمير سعيد الجزائري في مكة، عندما فوّضه بأن «يحسن العلاقات بينه وبين جمال باشا»[٢٥].

وفي موسم الحج اللاحق (١٩١٦) «أخرج الحسين علماً، وصلى عليه أربعون ألف مسلم من الحجاج، وطاف بالعلم سبع مرات حول الكعبة، ثم سلمه للأمير عبد القادر [شقيق الأمير سعيد] ليرفعه على سراي دمشق، باسم الحسين ملك العرب»[٢٦].

وحتى يطمئن السوريين، كان الشريف حسين، وراء اللقاء الذي عقد بين السوريين والبريطانيين، والمعروف باسم العهد البريطاني للسوريين السبعة؛ حيث نصت بنوده على «رغبة الحكومة البريطانية بانقاذ عامة الشعوب الناطقة بالعربية من ربقة الأتراك، وتركها تعيش في ظل الحكم الذي تريده»[٢٧]. واستناداً الى هذا الاتفاق، واتفاقه مع الحسين عام ١٩١٥، أصدر الشيخ كامل القصاب، وكان على رأس السوريين السبعة، فتوى دينية، تبيح مقاتلة المسلمين العثمانيين واعلان الثورة ضدّهم.

ولبى الشيخ صالح العلي، نداء الحسين وفتوى القصاب، فقطع على الأتراك «الطريق التي تصل طرطوس بحماه، عن طريق مصياف، وكان مقره في ناحية الشيخ بدر التي تمر بها هذه الطرق»[٢٨]. وفي ربيع عام ١٩١٨، هاجم القوات التركية قرب «النيحا»، واستولى على معدات وذخائر عديدة[٢٩].

وبذلك نجح الشريف حسين، في استخدام الخيوط الأربعة المرتبطة به رأسياً، دون